

قصة قصيرة

اوهام رومانسية

ابتدأ الخيال يجمع بي ويبني لي قصورا مرجانية في عالم لازوردي يوم كنت في صف البكالوريا في مدرسة.....

كنا مجموعة من الشبان نتسكع في شوارع بيروت ونحلم بالمستحيل. امسيات باكملها كنا نقضيها على شاطيء كورنيش المنارة نسير وتشطح بنا الآمال. واحد منا كان يحلم بالبرازيل، يخبرنا الاخبار السحرية عن بيليريزونتي حيث كان والده، وعن قوافل البغال التي كانت تمخر عباب الادغال لتمارس التجارة بين فكي التينين. ويخبرنا القصة العجيبة عن صيد الحيات في البرازيل وعن الانهار التي تكاد تكون بحارا وعن قصب السكر الذي يتضخم حتى يصبح كقساقل وجاقات القاطرجي في البيوت الجبلية. لقد اتى والده هذا الصيف وجلب له معه ساعة لونجين فضية اللون جميلة وعصا من العاج، كان صاحبنا يتمختر بها كضابط كبير برتبة جنرال.

وواحد آخر كان يحلم بالفيليبين تلك البلاد البعيدة في اقصى المشرق.. بمانيلا واخبارها العجيبة عن الاحجار الكريمة.. الياقوت.. الزمرد.. الجاد.. اطنان القهوة الخضراء التي تغطى بها المخازن.. تلك القبيلة المسلحة التي كانت تأتي للتبرك بوالده لانه حسب زعمها من بلاد الرسول، فتطلب منه بعض التعاويذ لطرد ارواح الجان عن النساء والابفار. وكم اتته نسوة يطرقن بابيه في الامسيات المتأخرة طالبات منه، والدموع تنساح من اعينهن، ان يكتب لهن تعويذات تعيد الزوج الفاسق الى احضان اسرته والولد التائه الى حجر امه قائلات له: ايها الرجل المقدس يا ابن بلاد النبوة يا من تفوح منك رائحة اسيدنا الصحابة.. وكان الرجل يكتب ما تيسر ويضحك في سره وهو يردد آمن بالحجر تبرأ.. وتعود المرأة عادة بعد شهر او شهرين شاكرا ممتنة والخروف الهدية يمشي وراءها مطأطيء الرأس احتراما للقداسة التي تحقق العجائب.

اما انا فكنت احلم بافريقيا.. تلك الصبية السوداء التي تلمع بشرتها بوميض شهوة مجنونة، والتي يفوح من جسدها عطر لا كالعطور اريجه فهو لا يجعلك في عالم الاحلام الشغافة والخواطر السماوية ولكنه يهزك كتيار كهربائي فتصطك العظام ويرتعش اللحم ويهدر الدم في الشرايين وتتجذب اليه لاعقا غسله المر متمرغا برائحة رغبته القوية الخارجة من عينين تلتمعان بلمعة السحر المتوحشة، بلمعة البكارة الانسانية قبل ان تدخل زريبة الحضارة لتتدجن فيها.

افريقيا هكذا حلمت بها وانا في الثامنة عشرة اتسكع على كورنيش المنارة وعلى رمال السان سيمون.. شلالات من اللذة تنسكب من اثناء جنية سوداء رجلاها على الارض ورأسها في السماء. وانا اقف عاريا رافعا رأسي ويدي استحم بماء ذلك الشلال. افريقيا هكذا حلمت، بها غابات الاشجار الباسقة التي تلتف اغصانها معانقة بعضها بطهارة قدسية لا تفض بكارتها حتى شمس الحقيقة. غابات القروذ الزاعقة بالآلاف.. غابات الحيات التي تفتح افواهها لتبتلع الارض وما عليها.. غابات الاسود التي تزار فيتجمد الدم في عروق كل كائن حي.. والعيون التي تبرق فيتصاعد الشرر من البؤبؤ.. ذلك الشرر لم يكن ليرض خيالي المراهق بأقل من التمتع به. وكان يصادف في ذلك الوقت انني كنت اقرأ قصة روبنسون كروزو وكان والدي في غينيا يرسل لي الرسائل الجذابة.. وكنا متأثرين في المدرسة باستاذ الادب الانكليزي الذي يشرح لنا عن المدرسة الرومانسية في الادب وعن علاقة الانسان بالطبيعة الام وارتمائيه في احضانها ليقطف من شجرة انوثتها ثمرات السعادة البكر.. السعادة الحقيقية التي لم يفسدها مكر المجتمع ولا خبث العلاقات

الانسانية.كل ذلك جعل خيالي يصبح محموما وجعلني اكره المدرسة وافكر جديا بان اضع حدا لحياتي العلمية،التي كان والدي يعقد عليها آمالا واسعة،لاساfer الى غينيا حيث يقيم الوالد وحيث امارس نفسي واجسد احلامي مقلدا روبنسون كروزو في حياته.عائشا في بلاد لا تعترف الا بالقانون الطبيعي ضاربة بالقوانين الوصفية التي صاغها الرياء البشري عرض حائط الزمان.

وكانت نهاية السنة الدراسية تقترب..وكان استعداد التلامذة لامتحانات البكالوريا يجري على قدم وساق كل يتقنن في استنباط وسائل تساعده على السهر حسب ما يقيس عقله.فمن تلميذ يمسك الكتاب بيده ويضع اقدامه في وعاء ماء بارد كي لا يداعب النعاس اجفانه،الى تلميذ يصل الليل بالنهار ودون ان يؤثر ذلك على هدوء اعصابه،الى ثالث يزعم ان دخان التبغ عندما يداعب بانامله الحريرية الدافئة خلايا الدماغ يشعر الانسان باسترخاء لذيذ يجعل قدرة العقل على الاستيعاب اكثر وقدرة الخيال على الجموح اوسع،الى رابع يقول معتمدا كما يدعي على تجربة مكررة ان النبيذ وحده القادر على امتصاص التعب وانعاش القلب والجسد واعطاء التلميذ القدرة على تحمل الارهاق كرجل كبير ناضج.وكنا نسمع ونقتنع ونجرب ما سمعناه واقتنعنا به،فكنت اسجن نفسي في غرفتي اتناول السجارية اثر السجارية مخرجا مع كل شحنة دخان نوبة من سعال طويل متقطع وكنت سعيدا اشعر بنفسي رجلا كبرت عشر سنوات على الاقل.

ولكن الامتحان اتى اخيرا،واكتشفت منذ المسابقة الاولى،وكانت في الادب الانكليزي والسؤال عن الصفات النفسية لابطال مسرحية يوليوس قيصر للشاعر شكسبير بروتس كاسيوس انتوني،اكتشفت ان النجاح يحتاج الى تركيز وليس الى شطحات خيالية،يحتاج الى الانضباط تحت قوانين المنطق والعقل وليس الى الاحلام الرائغة المجنحة.

في مساء الرابع عشر من ايلول سنة .....اقلعت بنا الطائرة من مطار بيروت الى لشبونة.كان الوقت ليلا لم استطع ان انظر الى الارض من عل كما حملت بذلك مرارا.وصلنا لشبونة في الليل ايضا وكان المفروض ان نظير الى دكار عاصمة السنغال في صباح اليوم الثاني..ذهبنا في اوتوبيس شركة الطيران الى فندق سويس اوتيل في لشبونة..فندق كبير مؤلف من اكثر من عشر طبقات يغرق في الاضواء المتأرجحة البراقة.كان الضباب يلف الفندق من كل جانب وكان الضوء يتسرب من خلال الضباب،والفندق يربض كقصر سحري وسط هذا الضباب المشع.وصلنا الى قاعة واسعة حيث قدم لنا الشاي مع طعام خفيف مؤلف من الجانبون والقشقوان ثم وزعونا على الغرف فكان نصيبي ان اتقاسم الغرفة مع رجل لبناني من الشوير مقيم في دكار.لم نكن متعيين لا انا ولا زميلي الشويري فطلب زجاجة من البراندي واخذنا نشرب ببطء ونتبادل اطراف الحديث.

قال لي صديقي:اراك صغيرا بعمر الورود ما الذي اتى بك الى افريقيا!اجبته انني احلم بان اغامر في افريقيا منذ مدة فاذا وجدت نفسي وحققت امنياتي بالنجاح والثروة ابقى والا رحلت الى الولايات المتحدة لاتابع تعليمي هناك.هز الشويري رأسه بمرارة وقال:يا صديقي انت لا تعرف افريقيا الا من خلال افلام طرزان..انها وحش مفترس يلتهم كل ما تربيت عليه من مثل عليا ومناقب ومفاهيم.هنا انت امام الطبيعة العارية الوقحة وجها لوجه.

كل الكلمات والعبارات التي تعلمتها هنا يتغير معناها.. وصايا الانجيل.. آيات القرآن.. قوانين ارسطو الطبيعية اشعار المتنبي وحكمه.. كل شيء في افريقيا له طعم افريقي حتى العسل هل تصدق ان طعمه ليس حلوا.. ولكنك بالرغم من كل ذلك ستجد في بادئ الامر تسليية لا بأس بها.. هناك الغابات الشاسعة المساحة المرعبة بحشراتا ومستنقعاتها.. هناك السهول الخضراء الواسعة التي تزرع فيها الغزلان وحمير الوحش.. وهناك الصبايا الحسنات اللواتي يحمن حولك كما يحوم الفراش حول الضوء وأظن هذا سيعجبك كثيرا.. وضحك صديقي الشويري ضحكة منغمة لبضع لحظات ثم اردف متابعا حديثه.. صدقتي لن تعرف المرأة الحقيقية حتى تعاشر افريقية.. تندهش من ذلك العطاء الخصب الذي لا تشح مياهه.. تشعر بان رجولتك تتضاءل لتصبح صفرا.. واذا اردت ان تصل الى مرتبة الجنون في اندهاشك فشاهد افريقية ترقص.. الكون كله في حركة حولك.. الدم يسرع جريا في شرايينك حتى يكاد يفجرها، افريقيا خلقت للرقص والحب يا صديقي الصغير ولهذا انا احبها.. اني اكره برودة اوروبا ولؤمها وغطرسنها العنصرية.. ولكني اشفق عليك من افريقية لا زلت اصغر من ان تدرك الحقائق القاسية بصدقها المرة بصراحتها لانكم معشر الطلبة في لبنان ربوكم في المدارس على الاكاذيب ان مدارسكم مدارس تبشيرية غايتها استعماركم ثقافيا ليكتمل استعمارها السياسي والاقتصادي لكم.

ليس من شيء قليل انا اكره لبنان الاديعة والثقافة بالفرنسية واحب لبنان الميجنا والقرادي والدبكة.. يا صديقي الصغير عندما تكبر ستعلمك الحياة اشياء كثيرة كل بيئة ولها ثقافتها الخاصة بها.. لماذا تدرسون تاريخ فرنسا باللغة الفرنسية وانتم لا تعرفون شيئا عن فخر الدين المعني والد لبنان الحقيقي انت لم تسكن في اوروبا بعد.. لو قدر لك ان تذهب الى المانيا وخطر لك ان تسهر في بارات مميزة لوجدت كثيرا منها قد كتب الى جانب بابها عبارة تقول: هذا البار لا يدخله الكلاب والعرب والزواج.. اما في فرنسا فحدث ولا حرج عن حقدها للعرب وكبريائها البغيض يأكلون خيراتنا ويتغطرسون علينا فانت في فرنسا شرقي حقيير سواء كنت مسلما ام مسيحيا لا فرق في ذلك.. فالفرق فقط في لبنان والصورة الجميلة موجودة فقط في مدارسكم المزيفة التي هي بؤرة عفن لا مشعال حضارة.. وانتفخت شرايين عنق صديقي الشويري واخذ يشرب بشراهة كمن يريد ان يغرق في البراندي وكان يقول كلاما كثيرا غير مترابط في كثير من الفاظه.

انا اعرفهم في دكار اولئك المتغطرسين.. الم يخبرك والدك او جدك انهم اخذوا كل زواج السنغال ليقمعوا بهم ثورة سوريا الكبرى من اجل التحرر والاستقلال!

الم تقرأ عن تجارة الرقيق الاسود في اميركا! وها هم اليوم بينون لهم المستوصفات والمدارس ليعلموهم الحضارة كما يزعمون.

الا تعلم ان العمران الوحيد الموجود في افريقيا بناه المساكين اللبنانيون الذين يشقون طريق نجاحهم مشيا على رؤوس الخناجر بينما يأتي الاوروبيون فيبنون الكامبات ويستغلون ويستثمرون مستقوين بامتيازات دولهم وعندما يريدون الرحيل يفككون كمباتهم لتعود الارض قفراء وكأنها لم تشم رائحة انسان من قبل.. وهنا اخذ النعاس يدب بصديقي وداعيني النعاس بدوري فقررنا النوم.

اقلعت بنا الطائرة من مطار لشبونة الثامنة صباحا فلم يتسن لنا رؤية المدينة كما كنت اشتهي.. الضباب كان في كل مكان.. الشوارع واسعة جدا وبعض البناء القديم العهد كان يطل برأسه هنا وهناك تاركا من الانطباع

انه كان هنا بالامس القريب غير قليل من الترف والرفاهية والفن.وصلنا دكار في منتصف النهار..كانت الشمس مشعة والمحيط يظهر بمياهه السوداء الداكنة التي لم تستطع حتى شمس افريقيا ان تنفذ الى اعماق قلبه.وبدأت الطائرة تنخفض وابتدأنا نرى اليايسة..آه يا له من منظر جميل.

اشجار باسقة حسبها بادئ الامر نخيلا لولا تنبيه صديقي الشويري بانها ليست نخيلا ان هي الاشجرة تحمل ثمرها يستخرج منه الزيت الاحمر اسمها بالم..وبيوت دكار رأيتها من عل مشلوحه بين الزهور والرياحين والاشجار القصيرة والطويلة..وكنت ارى بعض القرميد الاحمر يطل برأسه من اماكن قليلة هنا وهناك..ولكن الدهشة الكبرى التي اعترتني لحظة لمحت منذنة مسجد تناطح السحاب بعلوها وتعجبت اوصلت الحضارة الاسلامية الى هنا؟ وضحك صديقي الشويري..يا طالب البكالوريا المغفل الذي يحتوي رأسك على كل شيء الا على الحقائق..الا تعلم ان الحضارة الاسلامية هي روح افريقيا والترياق الذي تعيش عليه؟قلت له كيف ذلك اشرح لي فأردف،المسلم عندما اتى افريقيا لم يكن يحتقر البشرية السوداء ولم يكن يمانع في التزوج بأفريقيات وفي تزويج افريقيين ولهذا لم يحافظ على اصله الدموي ولكنه ذاب في جسد القارة فكان روحها الذي به تحيا ونشر الحضارة في افريقيا..وهنا سمعت صوت ارتطام العجلات بالارض ففطنا اننا اصبحنا في ارض المطار..هبيت متحمسا لا غادر مقعدي ولكن صديقي قال لي لا تتعجل فهذا اليوم لا يوجد طائرة لفيينا ومن المفروض ان تباتوا في فندق لتسافروا غدا ولكني ادعوك بحرارة لتحل ضيفا عليَ هذه الليلة هلا قبلت؟اجبته والابتسامة تملو شفتي اشكرك بعمق طبعاً قبلت.

اخذت السيارة تقطع بنا دكار شارعاً اثر شارع..على طريق المطار كان البناء فقيرا مزريا..بيوت كثيرة من القش والزنك ولكن ما ان وصلنا الى المدينة حتى برزت شوارع انيقة..عبرنا شارعاً يشبه شارع النبي في بيروت بهندسته وبنائه واخيرا وصلنا الى بيت صديقي..بيت صغير وجميل بني من الاسمنت والخشب امامه حديقة ناعمة فيها كثير من زهور القرطونيا والورد والاضاليا وفيها شجرتي بالم باسقتين اطلقت عليهما اسم البلح الافريقي..صعدنا الى البيت عبر عدة درجات خشبية..قرعنا الجرس ففتح لنا خادم اسود البشرة،مهذب الحركات،انحنى امامنا انحناءة احترام قائلاً بعربية ركيكة اهلا وسهلا..دخلت فاذا في بهو واسع فرش بالكنبات الغربية الطراز يقابله بهو آخر فرش بكراسي خيزران كبيرة..ما هي الا لحظة حتى برزت امامنا فتاة شقراء،في سن الثامنة عشرة تقريبا،تلبس الشورت والبلوز المعقود على اعلى الاضلاع.. ما ان رأتنا حتى ركضت لتتعلق بعنق صديقي مقبلة اياه عشرات القبلات..ابي حبيبي كم مرة قلت لك ارسل لنا خبرا عندما تأتي..وضحك صديقي غامزا لي باحدى عيني..ا قدمك الى صديقي الصغير،سهيل اقدمك الى ابنتي التي لا تشبه والدها بأخلاقها وتصرفاتها ابداء،صونيا.. شعرت بالدماء تصعد الى وجهي خفية..نظر الي الشويري واخذ يضحك ضحكة واسعة..يا صديقي الصغير الم اقل لك ان رأسك لا يوجد فيه الا الاوهام..وهنا برزت سيدة البيت..امرأة ناضجة في الاربعين،هيفاء القامة عاجية الذراعين،على شفيتها طيف ابتسامة عذبة تلبس ثوبا حريريا،لونه موف،مددت لها يدي وانا أهى نفسي لخطبة كخطبة الجهاد سألقياها..سيدتي اني سعيد بمعرفتكم..انتم شرف لبنان ومجده انتشر في جميع انحاء الكون ليكون خمير عجين هذا الكون...هاهاها...ضحك صديقي الشويري...اية اوهام يحشون بها رؤوسكم طلبة لبنان المساكين..نحن يا صديقي لسنا خميرة عجين هذا الكون،نحن لسنا الا مجموعة مغتربين لا يستطيع الوطن بنظامه الطائفي القبلي ان يقدم لهم رغيف الخبز فأتينا الى هنا نركض وراء رغيف الخبز...

حتى بهذه يضحكون عليكم..وتعجبت من هذا الرجل ومن آرائه هل هو فوضوي.هل هو وجودي..هل هو علماني لا اعلم.أتانا الخادم بالبيرة فشربنا هنيئاً وقضمنا حبات الفستق مريئاً وما هي الا نصف ساعة تجولنا فيها قليلا بالحديقة حتى دعتنا السيدة الى مائدة الطعام..

الساعة السادسة مساء ركبنا سيارة صديقي الكبير واخذنا نتجول في شوارع دكار..سأجعلك تأخذ فكرة عامة عن دكار...انها بحق اجمل مدينة في افريقيا..انظر هناك..ذلك البناء الضخم الذي تلفه الاشجار انه الجامعة..هل تعرف انه يوجد في دكار جامعة معترف بشهاداتها في فرنسا،وجميع انحاء اوروبا!هنا مستشفى..ذلك البناء الفخم هو السرايا..هنا القصر الجمهوري..واخيرا وصلنا الى شارع فخم اسمه شارع تاييس..واجهات محلات فخمة تعرض الثياب "السينييه"محلات الصاغة..المكتبات الانيقة،وازدادت مفاجأتي عندما سمعت اللغة العربية تصدح على كل شفة ولسان..هل انا في حلم!وأجابني صديقي الشويري بان هذا الشارع ملك بمجمله للبنانيين فهذا السوبرماركت يملكه رجل من صغيين اسمه جورج الصيفي ومحل الصاغة ذاك هو لرجل من مشغرة اسمه حسين مرعي واما هذه المكتبة "واللبنانيون وحدهم يملكون المكتبات في دكار" فهي لرجل من بيت شباب ورأينا كثيرا من الاجانب في الشوارع حتى ليكاد عددهم ان يكون موازيا لعدد السنغاليين.في نهاية الشارع رأينا مسجدا كبيرا مزخرف البوابات منقوش القبة عالي المنذنة وبعده بأكثر من خمسمائة متر رأينا كنيسة كبيرة حديثة البناء قلت لنفسي بيروت اخرى فما اعجب ذلك.

سهرتنا كانت في حديقة المنزل بين الحشائش الخضراء والزهور الفواحة..انا اشرب البيرة وصونيا تشرب العصير اما الصديق الكبير فيشرب البراندي كعادته والسيدة ترتشف فنجان قهوة لبنانية بتمهل وكأنه الترياق.

ابتدأ الصديق الكبير الحديث قائلاً:هل تعلم يا صغيري ان الاسلام متجذر في افريقيا والمسيحية طارئة؟وهنا تدخلت صونيا..ما هذا الحديث يا بابا..دائماً تتعصب للاسلام وانت مسيحي..وضحك صديقي..لا انا لا اتعصب للاسلام الدين بل للاسلام الحضارة..اني لا اقول الا الحقائق..الحضارة الاسلامية وفدت الى افريقيا بردا وسلاما مع قوافل التجارة وقدمت للافارقة التسامح والقضاء على الروح القبلية عدوة افريقيا اللدود..وقدمت لهم قواعد للسلوك الاخلاقي انتفعوا بها..الم تقرأ يا صديقي الصغير عن الممالك الاسلامية في افريقية السوداء!قلت لا قال عجيب..الم تسمع بكنكوموس سلطان مالي في القرن الرابع عشر وصاحب اشهر رحلة حج في تاريخ البشرية! قلت لا هات حدثنا..قال: خرج في قافلة تضم ستون الف جندي وخمسمائة عبد،بيد كل منهم عصا من ذهب وفي كل عصا خمسمائة مثقال ويقال انه اخذ معه اربع عشر الف جارية وحمل مائة ناقة بتبر الذهب على ظهر كل واحدة ثلاثة قناطير..وكان ينشر ذهبه في كل مدينة حل بها حتى ان سعر الذهب انخفض في اسواق القاهرة عندما حل بها وهذه القصة يا صديقي موجودة عند ابن بطوطة فلا تظنها كلام مهلوسين وارجيف النساء.

هل قرأت يا صديقي عن مدينة تمبكتو التي لولا سمعتها التجارية الثقافية لما فكر الغربيون ان يغزوا افريقيا الم تسمع بغناها وقوافلها التجارية التي كانت تعبر الصحراء الكبرى لتوصل بضائع غرب افريقيا الى اوروبا.الم تسمع بجامعة التي تعود الى القرن الثالث عشر والتي كانت تسمى سنكوري والتي كان

التدريس فيها يجري باللغة العربية.. وهنا انفجرت صونيا.. دائما تتحدث عن الماضي يا بابا.. ذهب الماضي بما فيه انظر الى الحاضر.. ماذا يساوي كل هذا الكون بدون اوروبا.. طبعاً لا شيء كان البشر وحوشا كنا لا نزال نعيش بدون كهرباء بدون آلات، الغرب يا والدي هو التكنولوجيا لماذا تتجاهل هذا الامر؟.. وهنا تدخلت قائلاً: ايها الناس كلاكما على حق فالحضارات كالbشر تولد وتبلغ شرخ شبابها ثم تهرم وتموت.. والحضارة الغربية هي الان في شرخ شبابها لا احد يستطيع ان ينكر ذلك..

وبصق صديقي على الارض واخذ يشرب البراندي بشرود والصمت الحزين يلفه من كل جانب.. التفت الى صونيا الجالسة عن يميني، كألهاة من ألهاة الأولمب، بشعرها الأشقر المتناثر على جبينها وكثفها كخيوط الذهب المضيء. نظرت الى عينيها، بحيرتان من العسل المذاب تفوح منه رائحة حذر ناعس عن غير ما نعاس.. والاهداب يا الهي اهذه حقا اهداب ام اراجيح صفت من الذهب. وهنا التقت عينانا فاضطربت قليلا ولكن سرعان ما امسكت بنفسي وقلت: وانت ايتها الملاك الطاهر ماذا تفعلين هنا في افريقيا؟ اجابت صونيا والابتسامة تفتن من ثغرها الخمري. انا في آخر سنة من المرحلة الثانوية وسأنجح انشاءالله وبعد عدة شهور فقط سأكون في باريس لمتابعة تعليمي. سأدرس الادب الفرنسي اني احب الادب حتى اني اكتب بعض المقطوعات الشعرية بالفرنسية طبعاً.

باريس هذا شرف لباريس لا ادري ان كانت تستحقه ولكنك ستكونين حورية السين لا شك في ذلك.. انت شاعري المزاج يا ضيفنا العزيز اني اشكر لك حسن ادبك ولياقتك. وهنا وصلت السيدة الكبيرة بعد ان كانت قد سمعت الحديث.. اني اسمع زقزقة بلابل.. وعرفنا ماذا تقصد السيدة فضحكنا.. وهنا نظرت السيدة الى صونيا، ما بال ابيك واجما هكذا يا صونيا؟ هل استاء من شيء؟ لا يا ماما ولكنه دائم التعصب لرأيه فهو على حق والجميع على خطأ.. لا يملك من الروح الديمقراطية شيئا رغم راحة عقله واتساع خبرته.. واقتربت السيدة من صديقي الشويري واخذت تداعب شعره باناملها العاجية وتمسح على جبينه، ثم اقتربت اكثر وطبعت قبلة على شفثيه.. يا زوجي الكريم، كم انت حبيب.. يتعقلك بجنونك.. بخيرك بشرك.. بحقك بباطلك.. كم انت حبيب.. رفع صديقي رأسه ناظرا لزوجته بعينين ملؤهما الحنان.. لن اكثر من الشراب بعد اليوم اعدك لن اكثر من الشراب بعد اليوم.. ثم وقف بحركة صاخبة وهو يقول، لم نحتفل بضيفنا حق ضيافة قطعنا الوقت بالجدل العقيم المحزن.. تعالوا نرقص ونفرح.. يا صونيا ضعي اسطوانة جميلة في الستيريو.. هيا اریده لحنا صاخبا.. دعوا الليل يسيل موسيقى.. وابتدأت النغمات الصاخبة تصدح وتناول صديقي بيده يد زوجته الكريمة وأخذ يلف بها المكان من اقصى الشرق الى اقصى الغرب والسيدة الوقورة تتحرك لينة الاعطاف يتلوى جسدها ويتكسر بين ذراعي زوجها. خيل لي في بعض اللحظات انها ليست امرأة ان هي الا نور سماوي تجمد في قالب امرأة.. وصرخ صديقي ما بالكم واقفين هكذا كالاصنام هيا تحركوا.. واخذت بيد صونيا وابتدأنا ندور.. احسستها كالفراشة تدور حول قنديل عمري.. كانت شفافة كبسمة امل. رشيقة الحركات كغزاة تجري في مرج.. احسست بشبابها المتوثب لحظة لامس نهداها صدري.. وعندما تتطاير شعرها حول وجهي وسرى لهاث انفاصي في عبير ذلك الشعر احسست نفسي اسعد انسان في الدنيا.. احسست بان المرأة ليست جسدا من لحم ودم انها ومضات بريق سحري يشع من سماء الالوهة. وانت الرقصة الثانية وانتقلت صونيا الى ذراعي والدها وانتقلت بدوري لاراقص السيدة الوقورة.. اية شفافية.. اية كياسة.. هنا انت امام الانسانية التي هذبها الحضارة وشذبته حتى جعلت منها انفاسا خالصة من رهافة الحس والذوق المصقول وهنا تذكرت شطرا من الشعر.

## قريبا على بعد بعيدا على قرب

وتخيلت ان هذه هي صفات المرأة الحقيقية ان تكون قريبة من الرجل بلباقتها بشفافيتها بحلاوة معشرها فاذا ما اراد الامساك بها اطبقت اصابعه على السراب.. نظرت الي السيدة قائلة ما بالك متناقل الحركات لم تكن هكذا قبل قليل. ام ان مراقبة الصبايا ليست كمراقبة العجائز؟ عجائز انت "فينوس" الة الحب والجمال يا سيدتي ولكن كياستك الرقيقة جعلتني اشعر بتضاؤل حجمي.. لا تقل هذا الكلام.. انت ابرأ من الورود واطهر من نور الصباح.. لا يوجد اجمل من حياة التلامذة كيف تركتها واتيت الى هنا؟ اني اشفق عليك بروح الامومة لا ادري يا سيدتي لماذا فعلت ذلك بنفسي ولكن منذ مدة وانا اشعر بشيء يهدر في داخلي كبركان.. شيء يزلزلني من الاعماق، يقول لي اركب حصانا من نار واحمل سيفا صنع من الغضب وغامر في بلاد الله الواسعة.. حطم كل القواعد والمقاييس اعلنه تمردا على نفسك وعلى الدنيا باكملها.. اية احساس عنيفة.. اني ادعو الله بعمق لكي يرحمك ويوفقك.. غريب كيف اصبحت الدنيا.. لم يكن جيلنا هكذا.. جيلكم جيل التمرد جيل الرفض.. انا اعلم ذلك صونيا ابنتي تعاني بعض تلك الاحاسيس ولكن ليس بنفس العنف الذي تعانيه انت... ودق قلبي بعنف عندما لفظت اسم صونيا ونظرت اين هي الان؟ فوجدتها تتأرجح بين ذراعي والدها راخية رأسها الى الوراء تضحك ضحكة رنانة مجلجلة والوالد يؤرجحها فيحملها راميا اياها الى الاعلى وكأنها طفلة صغيرة.. ويختلط ضحكها كما يختلط ذهب بنحاس فتشعشع الحديقة كلها بالسعادة البريئة الراقصة على نعمات الفضيلة العائلية.

ابتدأ الوقت يجري سريعا.. نبهتنا الى ذلك السيدة الكبيرة.. نحن في منتصف الليل وضييفا يجب ان يصحو باكرا فهيا الى النوم..

استيقظت باكرا في الخامسة والنصف.. حلقت ذقني ونظفت اسناني وارتديت ثيابي فاذا الساعة قد ناهزت السادسة.. وهنا فوجئت بسيدة البيت تطرق الباب قائلة صباح الخير يا ضيفا الكريمة.. صباح الخير سيدتي الفاضلة.. هل ارتديت ثيابك.. نعم انا في كامل استعدادي.. اذن القهوة جاهزة ونحن بانتظارك في الصالون.. وجدت الجميع بكامل ملابس الخروج وتعجبت لذلك، صباح الخير ايها الاهل الكرام.. صباح النور اللبناني.. ما بالكم مستيقظين باكرا هكذا لابسين ثياب الخروج؟ هل نسيت ان طائرنا ستقلع من ارض المطار في الثامنة، وعلينا ان نغادر البيت بعد هنيهة.. احنيت رأسي خجلا وعرفانا بالجميل هؤلاء اللبنانيون ما اكرمهم وما اجمل تهذيبهم، من انا ليتكبدوا كل هذا العناء من اجلي؟

استقلينا السيارة في السادسة والنصف، جلست السيدة في المقعد الامامي بجانب زوجها وجلست انا وصونيا في الخلف اخذ صديقي الشويري يرندها لنا لوديع الصافي مؤرجحا رأسه مع تموجات النغم.. قالت لي السيدة انها تحب ان تتعرف بوالدتي وانها ستحزن اذا ما مررنا بدارك ولم نخرج لزيارتهم، صونيا قالت لي هيا اجمع ما في جيوب والدك من دراهم وغادر الى الولايات المتحدة وتابع تعليمك وتخصص.. لا مستقبل في افريقيا للبنانيين انا اعلم ذلك.. اجبتها بانني لا استطيع ان احكم على الامور غيبا يجب ان اجرب واعاني وبعد ذلك احكم.. قالت حسنا ولكن لا تنس كلماتي فانا اعرف ما اقول.. اذا كانت ظروف والدك المالية تسمح لك بالسفر الى اميركا فايك ان تضيع الفرصة من يديك اسمع مني ولن تندم.



اعجبتني هذه الثقة بالنفس..تقدم الآراء بلهجة واثقة من انها لا يمكن الا ان تكون صحيحة..هنا تدخل صديقي الشويري قائلا بروح الدعابة،صونيا ابنتي كالديك تبيض كل سنة بيضة وأخذ يضحك...صمتنا..لم نفهم ما يقصد بتعليقه وما علاقة ذلك بالحوار الدائر..قالت صونيا بتأثر..وضح يا بابا والا اعتبرت ذلك اهانة متعمدة.قال والضحكة لم تخفف تماما من نبرات صوته.انك على مدار السنة تقولين فيضا من السخافات والترهات ثم تضعين في قلب تلك السخافات والترهات حقيقة منطقية واضحة كعين الشمس.وهذه السنة لم اسمع منك الا الترهات ولكني الان اسمع رأيا صحيحا وعميقا واطنه رؤيوبا وهنا اشرق وجه صونيا فرأيتته ابيض مشربا بالحمرة كما الفجر...